

دراسة تحليلية لمساوى الشاشات بالنسبة للطفل

د.حداد نسيمه

أستاذة محاضرة "أ"، في علم النفس، جامعة تيزي-وزو

ملخص

نتطرق من خلال هذه الورقة البحثية إلى إبراز المبالغة في التأكيد على مساوى الشاشات عامة والإنترنييت خاصة عندما يتعلق الأمر بالطفل، لذلك سنقوم بدراسة تحليلية معتمدين في ذلك على بعض أدبيات الموضوع التي تمكنا من فهم الماهية النفسية لهذه المبالغة، ولتحقيق ذلك ركزنا على الانبثاق و التطور التاريخي لفكرة المساوى، كما ركزنا على كيفية تناولها من طرف المختص النفسي العيادي في وضعية البحث العلمي أو في وضعية الممارسة النفسية، ومن النتائج التي توصلنا إليها كون فكرة المساوى تحصر البحث العلمي في وصف لا يأخذ بعين الاعتبار الشخص الذي يستثمر هذه الشاشات، الأمر الذي يعمل على عرقلة سيرورة الإصغاء في وضعية الممارسة النفسية.

الكلمات المفتاحية: طفل- شاشات- مساوى الأنترنييت – إدمان – جهاز نفسي.

Résumé

A travers cet article, nous avons essayé de mettre l'accent sur l'approche exagéré des inconvénients des écrans en particulier lorsqu'il s'agit de l'enfant, nous avons repris certains écrits et études en relation avec le sujet dans le but de mieux cerner l'aspect psychologique de cette exagération, et pour y parvenir nous avons retracé l'histoire de son émergence, son utilisation par le psychologue clinicien que ça soit dans la recherche scientifique ou dans sa pratique psychologique. Nous avons constaté à partir de nos lectures que diaboliser les écrans limite la recherche scientifique à une description qui ne prend pas en considération la personne qui les investit, et cela entrave le processus d'écoute en situation de pratique psychologique.

Mots clés : enfant – écrans – inconvénients d'internet – Addiction- Appareil psychique.

1 - مقدمة

اجتاحت الشاشات حياتنا اليومية فوسعت التفاعل بين الناس كما رفعت من نسبة ونوعية المعلومات و المعارف التي تجعلها تحت تصرف مستخدميها، حيث يعتبر استخداما منتظما و متزايدا لعدد المستخدمين سنة بعد أخرى، الأمر الذي دفع بالكثير من الباحثين بالاهتمام بالعادي و المرضي لهذا الاستخدام بالنسبة لكل المراحل العمرية للمستخدمين بما فيها مرحلة الطفولة.

جلب اهتمامنا تداول مساوى الشاشات خاصة عندما يتعلق الأمر بالطفل، فمعظم الباحثون يحذرون من انعكاساتها السلبية سواء الجسدية و النفسية، مما جعلنا نحاول فهم فكر المساوى من حيث توضع و تداوله بين الاختصاصيين في مجال الطفولة، و لما عكفنا على مطالعة بعض الأدبيات ذات الصلة بالموضوع وجدنا أنّ الشاشات موضوع (objet) يرتبط بمفهوم الإدمان، و من الشاشات التي أسهب الباحثون في دراستها هي شاشة الأنترنت، الأمر الذي جعلنا نعود إلى تاريخ مفهوم الإدمان حتى نفهم مساوى الشاشات التي تم تداولها بشكل مفرط، رغم أنّ الشاشات كموضوع إدمان تطرقت إليه تناولات نظرية لا تعتمد فقط على العوامل الخارجية في الإدمان بل تهتم بالشخص المدمن و السياق المحيطي الذي يتواجد فيه.

يتمثل الإطار المنهجي الذي اعتمدنا عليه في رصد الدراسات الأجنبية التي تشكل الأدبيات المتعلقة بمساوى الشاشات، التي ساعدتنا في حصر المحاور الأساسية التي اعتمدنا عليها في بناء الموضوع و عرضه، حيث وجدنا أهمية السياق التاريخي لمفهوم الإدمان و دوره في انبثاق و ترسيخ فكر المساوى، كما وجدنا تداوله في البحوث العلمية التي تناولت الإدمان على الشاشات لدى الطفل، و من جهة أخرى برزت لنا قلة تداوله في وضعية الممارسة العيادية لدى الاختصاصيين النفسيين الذين يتبنون مفاهيم النظرية التحليلية للفهم و المساعدة، و في المرحلة الثانية قمنا برصد مجموعة من الدراسات الجزئية على مستوى كل من موقع النظام الوطني للتوثيق عن بعد (SNDL) و موقع المنصة الوطنية للمجلات العلمية (ASJP)، و قمنا بذلك بدراسة تحليلية لكل هذه الأدبيات متسائلين عما إذا كانت الشاشات سلبية حقا أم هناك سيطرة لتناول نظري معيّن أدى إلى ربطها بالمساوى؟

سنحاول الإجابة على هذا التساؤل في سياق العناصر الموالية:

2 - تاريخ مفهوم الإدمان مع انبثاق وترسيخ فكرة مساوي الشاشات

إيتيمولوجيا يرجع أصل كلمة «Addiction» إلى اللغة اللاتينية: فعل «Addicere» «Addico»، و بالرجوع لقاموس فرافيو (Graffiot, F., 1934) اللاتيني-الفرنسي نجد أنّ «Addico» تحمل عدة معاني منها "القول لأجل" "dire pour"، "الموافقة" "approuver"، "يمنح" "adjuger"، "كرّس" "dédier"، "نذر" "vouer"، "تخلي" "abandonner" و "يعزو" "attribuer"، غير أنّ توظيف هذه المعاني في تلك الفترة عمل على ظهور كل من الدلالة السلبية و الإيجابية للعبارة.

ترتبط الدلالة الإيجابية لهذه الكلمة في "تكريس الشخص نفسه لمجلس الشيوخ"، أما الدلالة السلبية فهي مرتبطة بـ "الحكم الذي يصدر عن شخص ليفقد الناس حريتهم ويجعلهم عبيدا"، وقد استعملت هذه الدلالة الأخيرة من قبل القانون الروماني حيث أنّ القاضي «Addictor» يعلن عن الإدانة «Addictio» للشخص غير القادر على تسديد ديونه ليصبح بذلك عبداً «Addictus» للدائن.

شاعت الدلالة السلبية لفعل «Addico» في القانون الأوروبي بعد ذلك، وانتقلت بذلك في الدلالات التي يحملها الإدمان من حيث أنّ الفرد لن يتمكن من التخلي عن المادة التي يتعاطاها، غير أنّ الدلالة الإيجابية بقيت منحصرة فقط في اللغة الإنجليزية التي تحبذ تكريس الفرد جل وقت فراغه في الأشياء التي تهمة فقط الأمر الذي يجعلنا نعتقد أنّ هذه الدلالة الإيجابية تحمل ضمناً بداية فكرة الإدمان السلوكي، ورغم تعدد المفاهيم التي ظهرت حينها مثل toxicomanie – dépendance إلا أنّ جويس ماكدوجال (McDougall, J, 1982) فضلت مفهوم «Addiction» لأنه حالة الاستعباد التي يكون فيها الشخص في صراع غير متكافئ مع جزء من ذاته، وبذلك اعتمدت هذه الباحثة على الدلالة السلبية في تعريفه وفي تفضيله وتسربت بذلك هذه الدلالة السلبية في الاستعمال المعاصر للمفهوم.

وضح كل من فالور (Valleur, M, 2009) و تروسين ميلاني (Trouessin, M, 2016) أنّ مفهوم الإدمان وصل إلى المجال الطبي عن طريق الطبيب الأمريكي بينجامين روش (Benjamin Rush) الذي نشر سنة 1784 نصاً مؤسساً لمفهوم مرض الإدمان «Maladie Addictive»، وقد أشار الباحثان السابقان أنه حصر فيه مترتبات المشروبات الكحولية (les spiritueux) على الجسد والفكر للوقاية منها أو علاجها، و أنشأ بذلك فئة جديدة في الدليل التشخيصي والإحصائي للاضطرابات النفسية (DSM) أسماها حلم اليقظة (rêverie) أو اللهو (distraction) التي حذفت بسرعة من نفس الدليل نظراً لطرحها إشكالية

صدق تشخيص الطب العقلي في ما يخص مسؤولية الفرد في فقد القدرة على التحكم في فعل تعاطي الكحول، و أصبح بذلك مصدر عدم قدرته يرجع لحالة باثولوجية و ليس ضعف الإرادة كما تعتقد الأخلاق.

أخرج روش مفهوم الإدمان من السياق الأخلاقي بتقديمه نموذجا طبيا أحادي التفسير (univarié) اعتبر فيه الإدمان مرضا سببه المشروب الكحولي كعامل خارجي، و الذي بدخوله للجسم يؤدي تدريجيا إلى تسميم و إمرار الفرد، غير أنّ هذا الفصل عن المجال الأخلاقي لم يكن تاما و يظهر ذلك من خلال ما أسماه محرار الإسراف « thermomètre de l'intempérance »، فهذا الأخير يبرز أنّ التعود على الشرب يتسبب في مترتبات وخيمة تصل لدرجة الأمراض، و بذلك نلاحظ أنّ مسؤولية الفرد في هذا التعود تنتهي للمجال الأخلاقي و ليس للمجال الطبي، فهو يطرح إمكانية الفرد في الرفع من إرادته لتجنب المشروب، من جهة أخرى يشير هذا المحرار إلى أنّ المترتبات السلبية تزداد تدهورا كلما زاد تركيز المشروب ليصل الفرد للإسراف، و قد صنف روش هذه المترتبات الوخيمة إلى ثلاثة أصناف أولها الرذائل (vices) التي تشكل المترتبات الفورية، يلها صنف الأمراض ثم صنف العقاب اللذان ينتميان للمترتبات المزمنة.

نستنتج مما سبق أنّ نموذج روش تناول الإدمان معتمدا على قائمة من الأعراض التي يصفها الفرد و التي تم تجميعها في الدليل التشخيصي و الإحصائي للاضطرابات النفسية (DSM) على شكل زمرة لتشخيص ما يترتب عنها، بمعنى أنّ هذه المترتبات السلبية أخذت مكانة معيار تشخيصي أساسي للإدمان الأمر الذي جعلها تحافظ على السلبية التي وجدناها سابقا في الأصل اللاتيني و في الاستعمال القانوني لمفهوم الإدمان، من جهة أخرى يمكننا أن نستخلص أنّ تناول الأخلاقي الذي تم التخلي عنه لصالح تناول الطبي في فهم سلوك الإدمان مازال متواجدا، فهو يظهر من خلال البعد السلبي الذي يُعبّر عنه بمساوئ مادة الإدمان على الشخص المدمن، و هذا لا يتناسب مع تناول الطبي الذي اعتبره شخصا ذو معاناة باثولوجية و حرره من وصمة عدم القدرة على الالتزام بالمعايير الأخلاقية.

تبين لنا من هذا التحليل أنّ الأحادية التفسيرية للتناول الطبي أدت إلى انتقاده من طرف تناولات نظرية ظهرت بعده، منها التناولات ذات الثنائية التفسيرية منها التحليل النفسي الذي جاء بفكرة أنّ بعض الظروف الباثولوجية تعتبر أعراضا لظروف سابقة، و بذلك نجد أنّ مادة الإدمان لا تمرض كل الناس بل نجد فقط فئة منهم يلجئون إلى تعاطيه، كما نجد في نفس السياق أعمال علم الأعصاب (neuroscience) التي أكدت على وجود بعض الصفات الموروثة و المكتسبة التي تعزز قابلية الإصابة

ببعض الأمراض، بمعنى وجود هشاشة على مستوى الأفراد سواء نفسية أو بيولوجية يمكن أن تكون بمثابة عوامل داخلية مفسرة للإدمان، يضاف إلى ما سبق تناولات أدرجت دور المحيط كعامل خارجي للإدمان الذي أصبح فهمه الموضوعي يرتكز على التفاعل بين كل هذه العوامل الداخلية والخارجية.

ظهر مفهوم الإدمان السلوكي (Addiction comportementale) كنمط من الإدمان الغير مرتبط بمادة مدمنة بعد فترة ليست بالهينة من ظهور مفهوم الإدمان على الكحوليات والمخدرات، الأمر الذي أدى إلى إعادة النظر في كون التبعية الجسدية معياراً محورياً في تشخيص الإدمان دون أخذ بعين الاعتبار مفهوم التبعية النفسية التي أكدها الإدمان السلوكي، وهكذا بدأ التساؤل في مدى إمكانية اعتبار الإدمان السلوكي مرضاً مثله مثل الإدمان على المواد الكيميائية، وعليه يمكننا القول أن توسع دائرة الإدمان للحياة اليومية زاده تعقيداً سواء على مستوى الفهم أو على مستوى الاستعمال، وما يمكن استخلاصه هنا هو بروز الجانب الإيجابي للإدمان من جديد بعد أن كان استعماله لا يتجاوز اللغة الإنجليزية، وبدأ التساؤل عن كيفية فهم استثمار الناس لمواضيع الحياة اليومية التي تفرحهم كإدمان، بمعنى متى يمكن وصف استثمار معين لمواضيع الحياة اليومية بالباطولوجي، وفي هذا السياق ترى داريسكون (Varescon, 2009) أن التكرار واللذة هما المؤشران اللذان يدفعان المفحوص لطلب المساعدة، وقد أشارت إلى أنّ حالياً لا يوجد إجماع بين الباحثين لوضع قائمة محددة لأشكال الإدمان السلوكية غير أنهم يرون الاختلاف بينه وبين الإدمان غير السلوكي يكمن في الموضوع (objet).

تعتبر الشاشات أحد مواضيع الإدمان السلوكي، وحسب تروسين (Trouessin, M, 2016) رفض مفهوم الإدمان على الشاشات في الطبعة الخامسة للدليل التشخيصي والإحصائي للاضطرابات النفسية (DSMV) ما دام التخلي عنها لا يؤدي إلى ظهور الأعراض الإنسحابية الفيزيولوجية للإدمان، غير أن هذه الباحثة ترى أنّ إدماج أو رفض هذا المفهوم أثار إشكاليتين أساسيتين: الإشكالية الأولى تتعلق بالتناول الذي يقلل من شيطنة (diaboliser) الشاشات لأنها ليست هي التي تؤدي إلى الإدمان لكن يؤدي إليه التفاعل بين شخص له تاريخ شخصي معين، في وقت و سياق معين، أما الإشكالية الثانية فتتناول الإدمان على أساس مظاهره الفيزيولوجية التي تم انتقادها سابقاً، وما يمكن قوله هنا أنّ فكرة المساوئ ارتبطت بالشاشات كأحد مواضيع الإدمان السلوكي مثلما إرتبطت سابقاً بالمادة السامة التي تؤدي للإدمان، الأمر الذي جعل لوكور (Le Corre, V, 2018) يرى أنّ المواضيع الرقمية (objets numériques) يمكن أن تنتمي للأعراض التي يعبر بها المفحوص عن ألمه للمحلل النفسي، وهذا الأخير سيساعده على

التوصل إلى إزاحة الغطاء عن الفهم اللاشعوري لهذا السلوك و مساعدته على استعادة جزءا من سيره النفسي، و التغيير من خلال هذه الدينامية ، و يرى هذا الباحث أهمية الاهتمام بالتقنية الرقمية، مواضيعها و علاقات المتعة التي يربطها الأفراد بها حتى يتم فهم الماهية اللاشعورية للإدمان عليها.

يظهر مما سبق أنّ اعتبار الشاشات أحد مواضيع الإدمان السلوكي جعلها ترتبط بمساوى الإدمان مثلها مثل مواد الإدمان غير السلوكية، و بذلك يمكننا اعتبار فكرة المساوى تنتهي للتناول الطبي الذي يعتبر مادة الإدمان سما يعمل تعاطيه على إمرض الفرد، لكننا وجدنا أنّ هذا التفسير الأحادي للإدمان يعمل على وصف مترتبات الإدمان لكن لا يقدم تفسيراً لمصدره، لذلك جاءت تناولات أخرى أعطت مكانة للعوامل الداخلية النفسية و البيولوجية و عامل المحيط في فهم الإدمان، و بذلك لا يمكن نسب المساوى للشاشات بقدر ما يجب فهم العوامل الشعورية و اللاشعورية للإدمان عليها.

3 – البحث العلمي في مفهوم الإدمان و ترسيخ فكرة مساوى استعمال الشاشات

حصرنا من خلال مطالعتنا لأدبيات مساوى استعمال الأنترنت أنواعا مختلفة من البحوث، تندرج ضمنها البحوث الإحصائية، البحوث النفسية الاجتماعية و بحوثا في المجال القانوني تدعم فكرة مساوى الشاشات عامة و شاشة الأنترنت خاصة، كما وجدنا بحوثا تجعل من الشاشات و سائط تعليمية تدعم فكرة إيجابية الشاشات بالنسبة للطفل.

سنتناول ما يتعلق بالبحوث الإحصائية الأجنبية، حيث بينت دراسة أجراها المركز الفرنسي لسبر الآراء (IPSOS (Ministère français de solidarité, 2009 مع أفراد يتراوح سنهم بين 15-25 سنة حول الشاشة المفضلة لديهم، فوجدت أن 61% يفضلون شبكة الأنترنت، 49% يفضلون التلفاز و 35% يفضلون السينما، و بالتالي يمكن القول أن الأنترنت تعتبر الشاشة الأكثر تفضيلا لدى هذه الفئة العمرية، و ربما بسبب اقتحامها الواسع للبيوت و المحيط الاجتماعي احتلت الصدارة في اهتمام الباحثين لدراسة سلبياتها بالنسبة للطفل.

تتماشى نتائج هذه الدراسة مع ما توصلت إليه دراسة المفوضية الأوروبية من خلال شبكتها المواضيعية EU Kids Online التي تهدف إلى تحديد كيفية استعمال الأطفال و أوليائهم للأنترنت، حصر مخاطر هذا الاستعمال و أساليب الحماية، كما تهدف إلى مقارنة النتائج المتحصل في ما بين مختلف البلدان الأوروبية المشاركة في الدراسة، و قد أسفرت هذه الدراسة الممتدة عبر الزمن على تقرير نشر من طرف الباحثين

ليفينغستون و حدون (Livingstone, S& Haddone, L, 2010)، و تقرير آخر نشر من طرف سماحل و آخرون (Smahel, D., & al).

أكد التقريرين أنّ استعمال الأنترنت من طرف الأطفال يتزايد كل سنة و بلغ سنة 2008 إلى 75% من الأطفال الذين يتراوح سنهم بين 6 و 10 سنوات، كما أنّ 59% من الأطفال الأوربيين الذين تتراوح أعمارهم بين 9 و 12 سنة لهم اشتراك شخصي (leur propre profil) على شبكة التواصل الاجتماعي، و تتمثل أنشطتهم الأساسية عبر الأنترنت في: - إنجاز الفروض بنسبة 92% - الألعاب بنسبة 83% - مشاهدة الفيديوهات بنسبة 75%، مما يبيّن أنّ الطفل يستثمر الشاشات بشكل متزايد خاصة إن كان الأولياء يستعملونه، كما وجدوا أنّ للوالدين دوراً أساسياً للتأثير في زيادة الفوائد و التقليل من المخاطر و الأضرار مقارنة بالفاعلين الاجتماعيين الآخرين.

عزّف هؤلاء الباحثون جهود الأولياء لمساعدة أبنائهم في استعمال الأنترنت بالوساطة الأبوية «parental mediation» و صنّفوها إلى نوعين: الوساطة التمكينية «enabling mediation» التي تتمثل في الممارسات الوالدية التي تهدف إلى تمكين الأطفال من استخدام الأنترنت بشكل جيّد، و الوساطة التقييدية «restrictive médiation» التي تتمثل في وضع قواعد للحد من استعمال الأطفال للأنترنت سواء من حيث الوسيلة المستعملة، الوقت المسموح به، الأنشطة التي يمكن القيام بها.

نشير أنّ الباحثون وضّحوا الوساطة التمكينية من خلال فئتين من الممارسات الأبوية، ممارسات الوساطة النشطة «active médiation» التي تتمثل في التحدث مع الأطفال حول استخدام الأنترنت، مشاركتهم الأنشطة التي يقومون بها مع شرح ما هو جيّد أو سيّء، أما ممارسات المراقبة الفنية «technical monitoring» فتتمثل في استخدام الوسائل التكنولوجية مثل برامج الرقابة الوالدية، و قد أكد هؤلاء الباحثون أنّ الوساطة المقيّدة أكثر فعالية في تقليل المخاطر التي قد يتعرض لها الطفل عبر الأنترنت، لكن لها جانباً سلبياً يجعل الأطفال الذين يتم تقييد استخدامهم بشكل مفرط يميلون إلى عدم امتلاك مهارات رقمية تعزز فهمهم للأنترنت و تمكّنهم من حسن التعامل مع المواقف المزعجة التي قد يواجهونها، و في هذا السياق أكدت الباحثة جهال (Jehel, S, 2012) أنّ هؤلاء الأطفال يبتكرون تقنيات مستوحاة من معتقداتهم السحرية التي يرون أنها تحميهم من المواقف المزعجة التي قد يتعرضون لها، لذلك ترى هذه الباحثة أنّ نوعية الوساطة الوالدية مرتبطة بوسائل الضبط العمومية التي تعزز الرقابة.

يظهر من الدراسات الإحصائية أنها دراسات وصفية أبرزت أنّ شاشة الانترنت أكثر استثمارا من طرف الطفل، كما بينت ضرورة توفير برامج حماية من المواقع المزعجة خاصة بالنسبة للأطفال الذين يقوم أوليائهم بتقييد مفرط لهذا الاستعمال، المر الذي يجعل الطفل غير قادر على حماية نفسه مما يعرض له.

تحصلنا على بعض الدراسات الإحصائية المرتبطة باستعمال الطفل الجزائري للانترنت، منها دراسة قامت بها مؤسستي l'ideatic et med&com سنة 2010 حول مستعملي الانترنت بالجزائر، حيث أجاب 18064 شخص على استبيان وزع عبر الانترنت، ومن بين النتائج التي توصلت إليها أنّ نسبة الأطفال الذين يستعملون الانترنت يتراوح سنهم بين 10 و 14 سنة بلغت 2.1%، أما الذين يتراوح سنهم بين 15 و 19 سنة فنسبتهم 17.2%، ويمكن استخلاص أن انخفاض النسب المتوصل إليها قد لا يعكس الواقع الحقيقي لاستعمال الطفل للانترنت الأمر الذي لا يمكننا من مقارنة نتائج هذه الدراسة و ما توصلت إليه الدراسات الأجنبية التي تطرقنا إليها في الفقرة السابقة.

وجدنا أيضا دراستين أكاديميتين أكثر حداثة، الأولى قامت بها بولسنان فريدة (2015) والثانية قام بها بايوسف مسعودة (2016)، وقد قدمت كلتا الدراستين بعض الإحصائيات المتعلقة بكيفية تعامل الوالدين مع استعمال أبنائهم للانترنت، حيث بدؤوا استخدامه مبكرا وبشكل فردي ودون تقييد، وفي حالة تقييد هذا الاستعمال فإن الأم هي التي تشرف على ذلك وتركز فقط على تحديد الفترة الزمنية التي يقضونها أمام الانترنت.

نلاحظ من خلال القراءة الوصفية للدراسات الجزائرية أنّ الانترنت أصبحت مكونة أساسية للواقع اليومي لكل من الطفل والراشد، لكن الإصغاء المتمعن لنتائج هذه الدراسات يجعلنا ندرك أنّ الأولياء لا يشاركون أبناءهم في استعمالها خاصة الأب، هذا ما نجده في دراسة قام بها المركز الفرنسي Sofres لسبر الآراء (Ministère français de solidarité, 2009) والتي اعترفت فيها الوالدين بأن معرفتهم بالانترنت قليلة مقارنة بأبنائهم، وبذلك قلة معرفة الأولياء بالانترنت تعرقل التواصل الأسري الأمر الذي قد يدفع بالأطفال إلى التواصل في إطار العالم الافتراضي (virtuel).

نستخلص من الدراسات الإحصائية المشار إليها أنّ مساوئ شاشة الانترنت مبالغ فيها لدى فئة من الوالدين، الأمر الذي يجعلهم يلجئون لتقييد استعمال أبنائهم لها أو عدم المبالاة بهذا الاستعمال مما

يجعل شاشة الانترنت تبرز النمط العلائقي مع الطفل، بمعنى الأولياء الذين يبالغون في المساوئ تكون علاقاتهم مع الطفل محدودة في ما يخص التعامل مع الانترنت، أما الذين ينظرون لهذه المساوئ بموضوعية فيبدلون جهودا لأجل تمكين أبنائهم من حسن استعمالها.

يمكننا القول إذن أنّ شاشة الانترنت يمكن أن تُعتمد في الإصغاء للصعوبات العلائقية مع الطفل، حيث تُسَقَطُ خلالها المشاعر المتناقضة التي يعيشها الراشد أمام العالم الافتراضي وشاشاته، فبقدر ما هو منمهر بسحر ما تعرضه هذه الشاشات نجده متخوفا من تأثيراتها السلبية، والحل الذي يُخلصه من هذا التناقض الوجداني هو تضخيم سلبياتها أو الاستهانة بها، دون فهم أن كلا من التضخيم والاستهانة سلوكان سلبيان يعكسان رفض (rejet) الطفل ويوسعان هوة الصراع معه، وفي هذه الحالة يقوم الراشد بحماية نفسه من تحمل مسؤوليته في ترشيد استعمال الطفل للانترنت، وفي هذا السياق ركزت بعض البحوث في المجال القانوني مثل دراسة أحمد أيت والي (Ahmed Ait Ouali, 2013) ودراسة شرون حسنة وقاسمي الرزقي (2018) على أهمية تفعيل أساليب الحماية القانونية لاستعمال الطفل للانترنت، وعليه نجد أنّ الدراسات الجزائرية رغم قلتها إلا أنها توصلت إلى نتائج مماثلة لتلك التي توصلت إليها الدراسات الأجنبية.

حصرت بعض البحوث النفسية التي أجريت في المجتمع الجزائري مثل دراسة بلمهوب هند (2018)، دراسة منير عيادي (2018)، دراسة لامية بويدي وأسماء بن تركي و سامية عدائكة (2019) ودراسة شباب حميدة المترتبات السلبية لشاشة الانترنت منها:

- التعرض لعمليات احتيال ونصب وتهديد وابتزاز، وكذلك لمحتويات المواقع الأخلاقية التي تظهر بكثرة في الأنترنت.

- مخاطر الإدمان التي تنجم عن سوء استخدامه.

- تشجيع أسلوب الحياة الخيالية الغير سوية واللجوء إلى قصص حب و صداقة وهمية مع شخصيات مجهولة افتراضية، أغلها تتخفى وراء أفنعة وأسماء مستعارة وما يترتب على ذلك من عواقب خطيرة.

- ظهور أعراض التعب الجسدي والإرهاق والأضرار الصحية، التي يسببها الاستخدام المفرط للكمبيوتر والأنترنيت، كالضرر الذي يصيب العيون، العمود الفقري، المفاصل، الأعصاب وزيادة الوزن أو نقصانه... وغيرها من المخاطر الصحية الجسدية.

نشير أنّ الدراسات الجزائرية المشار إليها لا تختلف عن نتائج الدراسات الأجنبية، غير أنّ دراسة لوهوزي وآخرون (Le heuzey. M-F et al, 2012) أشادوا باستعمال مفهوم "ممارسات مفرطة" بدل مفهوم "إدمان"، وفي نفس السياق تناولت دراسة برناردي و بلانتي (Bernardi. S et Pallanti. S, 2009) العلاقة بين الإفراط في استعمال الانترنيت ووجود خلفية مرضية لدى الأفراد، وتوصلت نفس الدراسة إلى أن 86% من الذين يطورون استعمالا مفرطا للانترنيت يتميزون بأحد الاضطرابات التي حصرها DSM IV، ومنها - اضطرابات المزاج (Troubles d'humeur)، - الاضطرابات الهجاسية (Troubles obsessionnels compulsifs)، - اضطرابات الهوس الاكتئابي (Troubles bipolaires)، - القلق الاجتماعي والإدمان السلوكي (Addictions comportementales) خاصة الجنسي منه، كما أنهم يتميزون بشخصيات حدية أو نرجسية.

تبيّن هذه الدراسات أن الشاشات لا تؤدي إلى باثولوجيا معينة لكنها تشكل فضاء يظهر من خلاله التعبير عن عدة أشكال من الاضطرابات الباثولوجية، الأمر الذي يمكننا من القول أن إشكالية استعمال الوسائل التكنولوجية عبارة عن عرض نفسي يدل على معاناة معينة، حيث يتهرب الأفراد من مواجهة صعوباتهم العلائقية، معاناتهم النفسية وقلقهم باللجوء لعالم الافتراضية الذي تتلاشى فيه العلاقة بالواقع و يسهل حينها فسخ المجال لسيناريوهات القدرة الكلية الهوامية (toute puissance fantasmatique) على حد تعبير الباحث تيسورون (Tisseron. S, 2012)، الذي يرى أن الثقافة الرقمية تشجع العلاقات الافتراضية الضعيفة وتدفع للهروب من الواقع، على عكس ثقافة الكتاب التي تضع حدا بين الواقع والخيال، و تحبذ القرب في العلاقات كما تشجع على مواجهة الصعوبات و وحدة التقمصات والهوية.

توصلت دراسة جيفري و آخرون (Jeffrey. G et al, 2002) إلى أن التعرض الكثير لصور العنف لدى مجموعة من الأطفال أدى إلى ظهور سلوك العنف في سن المراهقة ولدى 25% منهم في سن الرشد، في حين أن التعرض القليل لصور العنف أدى إلى ظهور سلوك العنف في سن المراهقة و الرشد لدى 5% فقط من أفراد مجموعة أطفال، وبذلك توضح هذه الدراسة التأثير السلبي لصور العنف على الطفل،

لكن لم تشر إلى ما آل إليها 75% من الأطفال الذين تعرضوا كثيرا لصور العنف، و بالتالي ليس كل الأطفال الذين يتعرضون لصور عنيفة يصبحون بالضرورة عنيفين، هناك التاريخ الشخصي للأفراد الذي بني خلاله جهازهم النفسي بالتفاعل بين عدة عوامل ولن يفهم هذا التأثير إلا في سياقها، وربما فشل النماذج العائلية والاجتماعية يعتبر عاملا أساسيا في تقمص الطفل لنماذج الشاشة كما فسر ذلك هوستن وآخرون (Huston. A et al, 1990).

تم التطرق للجانب الإيجابي للشاشات في الدراسات التي ربطتها بعملية التدريس وجعلت منها وسائط تعليمية وقد أشار محسن المحسن (2003) إلى أهمية الشاشات للمراحل العمرية المختلفة (سواء في مرحلة النمو الحسي الحركي للرضيع، الفكر الرمزي و الفكر الاستدلالي للطفل)، كما أكد أن الاستعمال المنفرد و المفرط لهذه الشاشات يعمل على ظهور تذبذب الانتباه، افتقار الذاكرة، قلة النوم، وقلة النشاط الجسدي الذي قد يسهل الإصابة بالسمنة وبعض الأمراض الجسدية، هذا كله يبين أن الاستعمال المنظم والمتميز بحضور الراشد المتفاعل مع الطفل يقلل من النتائج السلبية ويمنح الشاشات بعدها الإيجابي في إطار الديناميكية العلائقية مع الراشد.

يظهر من خلال الدراسات السابقة أنها ركزت بالدرجة الأولى على مترتبات الشاشات كما عبر عنها الأطفال أو أولياؤهم من خلال إجاباتهم على استبيانات، فهي بذلك دراسات وصفية لسلوك فضول الطفل أمام الشاشات و سلوك الحماية التي يتخذها الوالدين لتقييد استعمالها، و حتى القانونيون ركزوا بحوثهم على تعزيز هذه الحماية من السلبيات التي أكدتها البحوث النفسية، و الكل هنا يربط ضمنا المساوئ بالشاشات ما عدى البحوث التي أجريت في المجال التعليمي والتي حافظت على كفاءة الشاشات و حاولت إبراز أهمية الديناميكية العلائقية في العملية التعليمية.

4- وضعية الممارسة العيادية و سيكوباتولوجيا الشاشات

تتطلب وضعية الممارسة العيادية جهازا مفاهيمي يمكّن المختص النفسي العيادي من سيرورة الإصغاء سواء للمفحوص أو لذاتيته و كذلك للسياق العلائقي الذي تتوضع به و فيه هذه السيرورة الإصغائية، لذلك تتطلب وضعية الممارسة العيادية تبني المختص النفسي لإطار نظري معيّن يوظفه في فهمه و تشخيصه لما هو موجود أو تغييره بواسطة العلاج الذي يراه مناسباً.

في إطار مفهوم الشاشات و الإدمان يمكننا التمييز بين التوجه النظري الذي يركز على التخلص من أعراض الإدمان لمساعدة الفرد على ترشيد استعماله لهذه الشاشة، و توجه نظري آخر يحاول إعادة بناء الأعراض في التاريخ الشخصي للفرد حتى يفهم معناها، و يمكننا ربط التوجه الأول بما قدمناه حول الأعمال التي اعتمدت الدليل التشخيصي و الإحصائي للاضطرابات النفسية، أما التوجه الثاني فيمكن ربطه بالتناول التحليلي الذي سنحاول أن نشير إلى بعض النماذج النظرية التي اعتمدت على مفاهيمه كأدوات إصغاء و فهم الإدمان على الشاشات.

قدمت ريفيير (Rivière. C-A, 2008) مقالا حاولت فيه الإجابة عن خصوصية الانترنت كموضوع إدمان في إطار النظرية التحليلية، و افترضت أن انترنت تمثل مشهدا لاشعوريا تسقط من خلاله الصراعات النفسية، و بذلك حاولت تحليل طبيعة الأنشطة الممارسة على النت كمؤشر لسير نفسي مرضي، حيث اعتبرت الانترنت كعرض من الأعراض التي يمكن أن يعبر عنه المفحوص و الذي قد يتم فهمه كتعبير عن قلق مرتبط بفقد الموضوع بعد إعادة بناء التاريخ الشخصي، و قد ماثلت الباحثة بين الحلم و الأنشطة على النت التي تعمل على تكثيف الصراعات النفسية و تحديث الصراعات اللاشعورية.

يظهر مما سبق أنّ تناول التحليلي يهتم بالشاشات و علاقة الفرد بها على مستوى الواقع النفسي و الهوامي و ليس كموضوع حقيقي، و لفهم الدلالة النفسية للشاشات في تعبير المفحوصين حصر لوكور (Le Corre. V, 2018) توجهان نظريان أساسيان ينتميان للتناول التحليلي، يتمثلان في التوجه الذي يعتمد على النظرية اللاكانية للفرد (théorie lacanienne du sujet) و الذي تبناه عدة اختصاصيون في أعمالهم منهم كريستيان فلافيني (Christian Flavigny) و التوجه الثاني يعتمد على نظريات العلاقة بالموضوع و الذي تبناه سيرج تيسرون (Serge Tisseron) من خلال دراسة العلاقة مع المواضيع الرقمية و متربباتها النفسية على سلوك الأفراد. من جهة أخرى وضحت ذلاشوبولو و ميسوني (Vlachopoulou. X et Missonnier. S, 2014) أنّ هناك فئتين من الباحثين الذين اهتموا بالبنية النفسية للإدمان على الانترنت، فئة ربطته بالبنية المنحرفة (structure perverse)، و فئة ثانية حظيت بإجماع أغلبية الباحثين و ربطته بالحالات الحدية (états-limites)، و في نفس السياق اعتمد سزتولمان (Sztulman. H, 2010) على ملاحظاته العيادية في كون الإدمان الحاد يتميز بالسير النفسي الحدي و أن أغلبية المفحوصين الحديين يتميزون بالإدمان ليقترح مفهوم الشخصية الحدية المدمنة « personnalité limite addictive » كنواة سيكوباتولوجية (nucleus psychopathologique) ليتمكن من فهم الإدمان معتمدا في ذلك على

نوعية العلاقة بالموضوع، طبيعة القلق، مستوى النكوص، ميكانيزمات الدفاع، الاكتئاب و طبيعة الصراع النفسي. أما بيرجوري (Bergeret. J, 1981) فيرى بوجود نقص (carence) تقمصي نرجسي في بنية المدمنين، وقد لاحظ ما أسماه فشل تصورات (défaut de représentation) الموضوع لدى هذه الفئة من الأفراد، حيث أنهم لا يحتملون الإحباط لذلك يستعملون سلوك الإدمان كحل فوري بهدف الوصول للذة و خاصة لتجنب ألم الإحباط.

اعتمادا على التناول التحليلي الذي حاولنا توضيح اهتمامه بالإدمان من خلال التركيز على بعض المفاهيم التحليلية التي اعتمدها الممارسون لفهم العلاقة بالمواضيع الافتراضية، و كيفية توضع هذا النوع من الاستثمار، فإننا نشير أنّ ما قدمناه يضعنا أمام إشكالية هشاشة الوالدية التي تفرض العالم الافتراضي على الطفل دون أن يختاره، مما يجعله يستثمره أكثر من الواقع فبدل تنمية علاقة واقعية حامية لصحته الجسدية و النفسية و العقلية، فإنه ينمي علاقة افتراضية غير فعالة في بناء شخصية متوازنة. بمعنى أنّ الشاشات تصبح سلبية عندما تصبح بديلا افتراضيا للوالدية الواقعية، و بذلك يمكننا القول أنّ الشاشات تحمل دلالات لاشعورية تبنى عبر التاريخ الشخصي للأفراد، و ربما المبالغة في سلبيتها يعتبر أحد مؤشرات الهشاشة الوالدية التي لا بد من أخذها بعين الاعتبار لتحقيق الصحة النفسية و الجسدية للطفل.

خلاصة

نشير أنّ الدراسات التي بلورت سلبيات الشاشات ركزت على مفهوم الإدمان كمفهوم ظهر و تطور في إطار تناول الطب العقلي، و يعرف "كاستعمال مفرط يترتب عنه اضطرابات جسدية، نفسية، سلوكية و علائقية" (Clause. A, 2017, 33)، الأمر الذي أعطى منحى فكر البحث لفهم هذه المترتبات، بمعنى أنّ المختص النفسي الباحث تقمص تخوف الوالدين و اتخذ فكر الحماية و التوعية فقدم بحوثا وصفية لواقع تعرض الطفل للشاشات، لكن الفهم النفسي يتطلب الاهتمام ببيكوباتولوجيا الشاشات، بمعنى الإصغاء النفسي لهذه السلبيات بعد وضعها في سياق التاريخ الشخصي الذي تبنى فيه البنية النفسية للطفل المستثمر للعالم الافتراضي، ليصبح بذلك الإدمان عرضا تظهر من خلاله هشاشة الراشد و إشكالية الوالدية.

المراجع باللغة العربية

- بايوسف، م.(2016). الطفل و الأنترنت المنزلي: مجالات الاستخدام و الاشباعات المتحققة.مجلة العلوم الإنسانية و الاجتماعية، (27)، 437-448.
- بولسنان، ف.(2015). الأسرة و أدائها الوظيفي في تربية و توجيه الأحداث في ظل التكنولوجيا الحديثة(شبكة الأنترنت نموذجا). مجلة العلوم الإنسانية و الاجتماعية، (20)، 17-28 .
- بلمهوب، ه.(2018). واقع المكتبة و الطفل في ظل المد الإلكتروني.مجلة دراسات معاصرة، 2(3)، 197-191.
- بوبيدي، ل.، بنتركي، أ. ، عداثكة، س.(2019). تأثيرات الإدمان على الألعاب الإلكترونية على التوافق النفسي للأطفال. مجلة الدراسات و البحوث الاجتماعية، (29)، 7-18.
- عيادي، م.(2018). أثر الألعاب الإلكترونية و انعكاساتها على النمط التفكيري للطفل. دراسات في العلوم الإنسانية و العلوم الاجتماعية، 32 (01)، 189-204.
- شرون، ح.، قاسمي، الرزقي.(2018). حماية الطفل من مخاطر الأنترنت (الفضاء السيبراني أو الافتراضي). مجلة الدراسات و البحوث القانونية، (9)، 25-51.
- محسن، الم. (2003). أطفال الأنترنت دراسة حول تأثير شبكة الأنترنت على الأطفال. تم الاسترجاع من الرابط <https://www.researchgate.net/publication/264653737>

Bibliographie

- Ahmed, A. O. (2013). *Les mesures de protection de l'enfant dans l'usage de l'internet*, Communication présentée à la Journée d'étude sur : L'internet et les droits de l'enfant.
- Bernardi, S., et Pallanti, S. (2009). Internet addiction: a descriptive clinical study focusing on comorbidities and dissociative symptoms. *Comprehensive Psychiatry*, 50 (6), 510-516.
- Clause. A, (2017). *Addictions à Internet et facteurs associés chez les adolescents, étude transversale de l'usage d'Internet parmi 579 adolescents* (Thèse de Doctorat en Médecine Générale), Université De Lorraine.
- Gaffiot, F. (1934). *Dictionnaire illustré latin français*. Paris, France : Hachette.
- Jeffrey, G. et al. (2002). Television viewing and aggressive behavior during adolescence and adulthood. *Science*, 295(5564), 2469-2471.
- Jehel, S. (2012). Comment la faiblesse de la médiation parentale sur internet favorise chez les préadolescents le développement d'une pensée magique. *Enfance*, 55, 40-50.
- Le Corre, V. (2018). Introduction. Pourquoi une journée d'étude sur le numérique dans une association de psychanalyse?. *Savoirs et clinique*, 1 (24), 150-155.
- Le heuzey, M. F. et al, (2012). Addiction aux jeux vidéo : les enfants à risques ou un risque pour tous les enfants, Communication faite à l'académie de médecine en janvier 2012. *Bulletin de l'académie de médecine*, 196 (1), 15-26.
- Livingstone, S., Haddon, L. (2010). EU kids online. *Zeitschrift fur psychologie. Journal of psychology*, 217 (4), 236-239. <https://doi.org/10.1027/0044-3409.217.4.233>.
- McDougall, J. (1982). *Théâtres du Je*. Paris, France : Gallimard.
- Ministère français de solidarité, de la santé et de la famille, (2009), *Protection de l'enfant et usage de l'internet*.
- Rigaut, P, (2001). *Au-delà du virtuel : exploration sociologique de la cyberculture*. Paris, Budapest, Torino : L'harmattan,

- Valeur, M. (2009). La Nature des Addictions. *Psychotropes*, 15(2), 21-44.
- Huston, A. et al, (1990). Development of television viewing patterns in early childhood. A longitudinal investigation. *Developmental Psychology*, 26 (3), 409-420.
- Rivière, C. A. (2008).Addiction à internet. Interrogation sur la dépendance à Internet comme une nouvelle forme d'addiction comportementale à travers un cas clinique. *Perspectives Psy*, 1 (47), 27-32.
- Sztulman, H. (2010). Personnalités limites addictives : Une relecture plurielle. *Pensée plurielle*, 1 (23), 37 – 51.
- Tisseron, S. (2012). *Rêver, fantasmer, virtualiser, du virtuel psychique au virtuel numérique*. Paris, France : Dunod.
- Trouessin, M. (2016). *L'addiction, un objet à la croisée des dimensions morale et médicale. Une approche philosophique du concept d'addiction*. Repéré à : https://www.academia.edu/30664669/Melanie_Trouessin_Laddiction_a_la_croisee_des_dimensions_morale_et_medicale.
- Trouessin, M. (2016). L'addiction aux écrans existe-t-elle? Séminaire IMPEC – 20 mai 2016 – ENS de Lyon. Retrieved from : <https://www.researchgate.net/publication/303677881>
- Varescon, I. (2009). Les addictions comportementales : définitions, évolution du concept et questions, Dans I. Varescon (dir.), *Les addictions comportementales: Aspects cliniques et psychopathologiques* (p.11-18). Collection *PSY-Émotion, intervention, santé*, Bruxelles, Belgique : Mardaga.
- Vlachopoulou, X., Missonnier, S. (2014). Passion virtuelle. *La psychiatrie de l'enfant*, 57 (1), 181-2.